

رياحين الشباب بين مفاصل صخر الدولة العبرية

وليد دَقَّة، فلسطين

"جايبك يا تل أبيب"

لم أتذكر حمل بطاقتي الشخصية معي حين جاء مراد لأخذي للعمل في أحد مطاعم "تل أبيب"، ولم أعرف بأنه سيكون لهذه الحادثة أثر على علاقتي بالمدينة اليهودية.

لقد أنهيت دراستي الثانوية للتوّ، وكنت منشغلاً فرحاً بتحزّري من كل التزامات الدراسة وواجباتها المملّة. تخلّصت من حقيبة المدرسة، وأخذت شنطة الملابس الصغيرة ووضعتها في المقعد الخلفي للسيارة التي جاء بها مراد لتقلّني... سيارة بي. أم. في. حمراء ذات بايين والتي لا يسمح روني، صاحب المطعم، لغيره أن يقودها سوى مراد. فلمراد مكانة خاصة عنده: يؤمّنه على مطعمه وزوجته وأولاده، فهو، على كل حال، سائق بارع. وأنا ما كان لي إلا أن أثق به أيضاً، فهو يعرف "تل أبيب" وأسرارها وخباياها. يعرفها ويعرف أزقتها كما لو كانت قرية بعد أن غادر قريتنا وترك مقاعد الدراسة الابتدائية والتحق بسوق العمل مبكراً.

انطلقت السيارة وعدّلت من جلوسي في المقعد الأمامي وتمنّيت أن ندور قليلاً في شوارع القرية على أمل أن ترائي سناء، وهي عائدة من مدرستها، فيما أنا أصبحت رجلاً ذاهباً لافتتاح المدينة. إلا أن السيارة انطلقت بسرعة فائقة نحو المدخل الغربي للقرية... انطلقنا وانطلقت بخيالي، على أنغام موسيقى شريط الـ"مينومار" الذي وضعه مراد في المسجّل، لأسمعه للمرة الأولى في حياتي، حالماً سابحاً بعوالم "تل أبيب" وحياتها التي تنتظرنني... كنت لا أرى السيارة تسير على الشارع وإنما تطير، والريح القادمة من الشبّاك تأتي من البحر في ساعة الغروب باردة لها رائحة الملح، تضيف للجو سحراً. رغبت عندها، أن أقف وأخرج رأسي من الفتحة التي في سقف السيارة وأصرخ... "جايبك يا 'تل أبيب'... جايبك يا مدينة الليل والغنج... جايبك يا حرية."

* نُشرت هذه الفصول الثلاثة من مخطوطة سيرة رياحين الشباب بين مفاصل صخر الدولة العبرية بإذن خاص من عائلة الأسير الشهيد وليد دَقَّة، وجميع الحقوق، بما فيها الترجمة، محفوظة ومحصورة بالعائلة. وقد حرّر النص وطابق نسخ مخطوطته، وشذراته، وتسجيلاته الصوتية الأخيرة عبد الرحيم الشيخ.

حرية؟! لا أعرف... قد تكون فردانية أو خصوصية أو مجهولية أو أي شيء غير القرية... المهم غير القرية وعكس ما تمثله. نظر مراد إليّ مبتسماً، واثقاً من نفسه بأنه أدرك ما يدور في رأسي في هذه اللحظات من أفكار، متحركاً في مقعده نافساً ريشه وكأنه يقول لي باستعراضية: "سأريك ما تعلمته خلال سنوات غيابي عن المدرسة... سأريك ما لم تتعلمونه في صفوفكم أنتم طلاب المدارس... أنا هنا المعلم، ولن تفيدك شطارة المدرسة بشيء. فهنا الدروس الحقيقية... دروس الحياة".

بادلته الابتسام، بعد أن ضغط على دعسة الوقود بقوة، واستجبت لرضاه عن ذاته موافقاً على أنه هو المعلم الآن وأنا التلميذ، حتى ازداد انكاءً للخلف بجلوسه خلف المقود، مائلاً نحو الباب ممسكاً بالمقود بيد واحدة والأخرى أخرجها من الشباك يداعب بها الريح.

لم انتبه من قبل لطريقة مراد في اللبس... فأنا لا أفهم في أصول الشياكة والموضة أصلاً. لكن طريقته كانت ملفتة للانتباه، بدا لي أنثوياً بذوقه، فقد وضع على معصمه الأيسر إسوارة من ذهب، وفي اليمنى ساعة مذهبة، ومن عنقه تدلى حتى منتصف صدره المكشوف سنسال علّق بطرفه خاتماً نسائياً أهدته إياه صديقه الإيطالية... انتبه بأني تمعّنت في ملابسه وحليّه، فمدّ يده خافضاً صوت المسجل كي أسمعته يقول: "غداً نذهب كي نشترى لك بعض الملابس".

ففيما أردت أن أقول له بأني لا أحب ملابسه ولا طريقته في عرض رجولته، فاتحاً أزرار قميصه كما لو كان قوّاداً يكشف شعر صدره، فاجأني بعرضه هذا، ففضّلت الصمت ولعبت دور التلميذ حتى النهاية كما قبلته منذ البداية. كان قبولي هذا أول تنازل لي أمام المدينة قبل أن أصلها، سيتبعه تنازلات أخرى لقوّادين جدد. لم يكن هذا في الحقيقة تنازلاً للمدينة وإنما تنازلاً لقروي مثلي يقدّمني للمدينة كما يراها القرويون في مخيلتهم: امرأة تضع المساحيق وتبرّج لتضاجع كل الرجال المارّين بها ليلاً، والرجل المتمدّن في نظره يتزيّن كالنساء.

وقف روني عند مدخل المطعم الذي خلا من الزبائن، فقد وصلنا في ساعة مبكرة من مساء يوم الجمعة. ففي مثل هذه الساعة لا تجد سوى العمال العرب الذين تجمّعوا أمام المحلات للهو والراحة قليلاً بعد أن جهّزوا المطاعم وهبأوا المقاهي للزبائن اليهود الذين يخرجون للسهر في ساعة متأخرة. كنت محظوظاً بالنسبة للشباب العرب الذين يخرجون إلى سوق العمل بالألوف بعد أن أنهوا دراستهم في المرحلة الثانوية. لقد تسلّمت عملي مباشرة في المساء نفسه الذي وصلت فيه إلى "تل أبيب".

قدّمني مراد لروني الذي صافحني دون أن يعيرني انتباهاً خاصاً، مكتفياً بابتسامة مجاملة مردداً كلمة بالعربية "أهلل"، أدركت لاحقاً بأنها الكلمة العربية الوحيدة التي يعرفها ويقصد بها أهلاً. وضعت حقيقتي في إحدى زوايا المطعم، وشرع مراد يشرح لي أنواع السلطات والمأكولات، ولم يدلّني على أسعارها. قال لي بأن محاسبة الزبائن مسؤوليته وحده إلى أن أستلم "شفت" المساء بمفردي. كان حريصاً فعلاً أن يحاسب الزبائن بنفسه وأن يسجل

كل أغورة يدخلها إلى جارور صندوق المحاسبة. وقال بأن أي أغورة يكتشفها مراقبو الضريبة في الصندوق غير مسجلة ستخلق لنا ولروني مشاكل. لم أفهم كل التفاصيل التي شرحها، لكنني فهمت بأن صندوق المحاسبة ليس من اختصاصي. لم أسأل عن الأجر الذي سأتلّقه كما ينبغي ممّن يستلم عملاً جديداً. كان همّي الوحيد هو ألا أبدو مرتبكاً أمام أي طلب يطلبه مني الزبائن، خصوصاً عندما تكون الزبونة شابة بمثل عمري. ففي مثل هذه الحالة أظهر قدراً كبيراً من الثقة بالنفس يفوق ما أملكه فعلاً... سرعان ما ترتعد يداي ويتشّنت ذهني بين طلباتها ومحاولتي استراق النظر إلى مفاتها.

تعلمت بسرعة، وأتقنت خلال شهر واحد مهارات العمل كلّها وعرفت أنواع المشروبات والمأكولات كلّها بأسمائها الغريبة، وبدأت أخرج الكمّيات اللازمة من اللحوم بجميع أنواعها من المجمّد لاستخدامها في وردية النهار في اليوم التالي. تسلّمت أخيراً وردية الليل بمفردي، وأصبحت قادراً ليس على إخراج اللحوم المجمّدة، وإنما الأثداء الدافئة التي صرت قادراً على استدراجها لتخرج من "جحور" الصديرات الصغيرة. لم يكن الأمر يحتاج إلى مهارات خاصة، كان يكفي أن أضع أفضل السلطات في الرف السفلي لـ"فترين" الثلاثة حتى تضطر الصدور الناهدة إلى الانحناء كي تختار منها، وكلّما كان النهدي فتياً كان من السهل استدراجه، فقد علّمتني تجربة الثلاثة بأن الفتيات في سن المراهقة غالباً ما يرتدين صديرات لا تلائم حجم أندائهن التي تكون في نضوج مستمر، فكانت انحناء خفيفة تكفي حتى يفيض النهدي مندلقاً ككعكة البافاريا أو كريم كراميل.

أخيراً تعلمت كيف أغلق الحساب في صندوق المحاسبة في نهاية الوردية، وألا أسجّل بعض المبالغ، ليس لإخفائها عن كشوف الضريبة وأعين مراقبيها، بل لإخفائها عن روني كي أتقاسمها مع مراد الذي بات متفرغاً كل الليالي لصديفته الإيطالية. فيما كنت منشغلاً باستدراج النهود، كانت حياتي تتغيّر باستمرار... أصبحت لي غرفة في البيت المشترك في الطابق الثالث في إحدى العمارات القريبة من المطعم... لأول مرة في حياتي أملك مبلغاً من المال الخاص بي وسريراً وغرفة يمكّناني من التفكير بجديّة باصطحاب نهدي لن أضطر بعد ذلك لاستدراجه إلى الثلاثة كي أرى نصف هلاله مطلاً، بل يمكنني أن أمتلك نهدياً خاصاً بي أرى استدراجه ببدر كامل دون أن ينحني، كما أن لمراد نهده الذي ترك وردية الليل كي يسهر على بدر إيطاليته الكامل.

في المدينة أصبحت لي خزانة ملابس خاصة بعد أن أصبح لي ملابس خاصة، لم يعد يشاركني أحد في جارور الملابس الداخلية والجرايب كما في بيتنا بالقرية. هنا، أنت فرد وحيد بذاتك ولست عضواً في أسرة مكوّنة من عشرة أفراد يشاركونك تفاصيل حياتك. في القرية خصوصيتك وملابسك الداخلية منتهكة.

فيما كنت أشكّل فردانيّتي، كان روني ما زال يحاول ترديد اسمي بصورة مشوّهة مخرجاً أصواتاً ليس لها علاقة باسمي على الرغم من سهولته على المتحدّث بالعبرية. ظلّ يلفظ وليد "ليل" ... في البداية لم يزعجني الأمر إلى أن بدأ يناديني باسم عبري، "يلين"، كما يناديني مراد بـ"موشيه". قال لي مراد بأنه من الأفضل لي أن يناديني روني باسم عبري، و"يلين"، على أية حال، قريب لفظاً من اسم وليد ويسهّل على روني مناداتي. لم يكن اللفظ ولا موسيقى

اسمي ولا حتى التسهيل على روني منادائي هو الذي يقلق مراد الذي كان مصرّاً أن يلعب دور القوّاد، حريصاً أن يتحدث معي أمام الزبائن باللغة العبرية فقط. كان ببساطة مطلوباً مني ألا أثير انتباه الزبائن باسمي ولغتي العربية على الرغم من أن روني لم يطلب ذلك مني صراحة. وإنما كان مراد كلما تحدّثت معه بالعربية يوضح لي بأنه ليس من مصلحتي استخدام غير اللغة العبرية في العمل. سلّمت بهذه التسمية بعد أن أدركت أيضاً بأن العربية لا توفّر مضاجعةً كما توفّرها العبرية لمراد. وسجّلت لـ "تل أبيب" ثاني تنازل عن اسمي ولغتي دفعة واحدة حتى لا أخسر فرصة العمل ومضاجعة أول يهودية لا تدقّق في التفاصيل لأنها إن فعلت ستكتشف لكنني التي لا تلائم لا اسمي العبري الأشكنازي ولا بشريّ القمحية.

في "تل أبيب" أن تتفردن وتحرّز ملابسك الداخلية المنتهكة، وتنكح كل نساءها، شرط أن تتعرّى وأن تخلع عنك ليس ملابسك فحسب، وإنما اسمك وماضيك ولغتك... عاش الجوع الجنسي حرّاً، تسقط اللغة العربية وأسمائها ما دامت المدينة توفر نكاحاً لشباب نفخ حرمان القرية خصيتيه. لم يمرّ وقت طويل حتى وصلت شرطة المباحث في إحدى الليالي و"فضحوا" عروبيّتي أمام كل الزبائن عندما اكتشف أحدهم لكنني، وطلب مني بطاقتي الشخصية. لم يسعفني اسمي العبري الجديد بإخفاء هويتي، وسألني أحدهم، وهو ينظر في أوراق مواطن يهودي، بدا لهم مشبوهاً:

- "ما اسمك؟"

- لم أتردّد في الرد "وليد... وليد دقة".

- "من أين أنت؟"

- "من باقة الغربية".

جاء في هذه اللحظة روني دون أن يقدّم نفسه، وقال: "إنه عربي إسرائيلي... عربي ميشيلانو... عربي من جماعتنا". لم أكن أعرف إن كان عليّ أن أفرح أو أغضب لكوني من "جماعتنا"، ولم أكن قد قررت إن كنت من جماعتهم أو جماعتنا، فأنا ببساطة لم أعرف الجماعات بعد. لكن، ما دام هناك "جماعتنا" فلا بُدّ أن يكون هناك "جماعتهم"، وعليّ أن أقرر لمن أتبع... لكنني سكّت حين تذكرتُ بأن كلمة "جماعتنا" يستخدمها رجال القرية للدلالة على زوجاتهم في مجالس الرجال كنوع من التغريب بكلمة زوجتي. حاولت أن أشرح للشرطي، بعد أن طلب مني بطاقة الهوية، بأنني نسيته في القرية وأنه لا يمكنني إحضارها الآن، لكنّ روني قاطعني، وقال: "أنا أعرفه جيداً، فهو من باقة الغربية فعلاً، وليس من باقة الشرقية كما تعتقد، وهو يعمل عندي منذ مدة، ولا يمكنني أن أستغني عنه بسبب أمر تافه، نسيان الهوية".

لكنّ الشرطي بقي مصمّماً على طلب الهوية أو الذهاب معه إلى المخفر، حتى يحضرها أحدهم من القرية، فهو لا يضمن ألا أكون من باقة الشرقية، حيث يحظر على أهل الضفة الغربية التواجد في ساعات المساء في المدن

اليهودية دون تصريح خاص. أصبح مطلوباً من روني، الذي أراد في الأمس إخفاء اسمي ولغتي العربية أن يحضر بطاقة هويتي ليثبت بأنني عربي... عربي من جماعتهم... الشرطة تريدنا عرباً واضحين أمام أعينها وأصحاب المحال، وأهل المدينة اليهودية يريدوننا أن نخفي هويتنا كي لا نزعج السياحة الداخلية وننفر الزبائن ونضر بمصالحهم الاقتصادية. في المدينة اليهودية تحاول أن تحظى بمجهوليّتك وفردانيّتك فتدفع ثمنها اسمك ولغتك، فتأتي الدولة على هيئة شرطي تعيدك إلى جماعتك، فتخسر كليهما. هنا، أنت، حتى لو كنت كما الماء: لا طعم ولا رائحة، فإن وعاء الزئبق يرفضك، ولا تذوب فيه. كل ما تحظى به في المدينة ليس سوى بعد جغرافي عن عيون أهل القرية يتيح لك قليلاً من الجنس الفاض عن حاجتها وكثيراً من مظاهرها. العرب في هذه المدن يدخلونها من مطابخها والمداخل الخلفية لفنادقها وورشها، ولا تقربهم من ورش إنتاج الحضارة. هنا، يطحن آلاف الشباب في عمر الرياحين بين مفاصل صخر الدولة العبرية بين مواطنتهم ووطنيتهم. هنا، بدأت أدرك بأن "جماعتنا" تعني أقل بكثير مما تعنيه الزوجة كخادمة وكجارية تنظف المطبخ، وتلبّي حاجات السيد الجنسية.

قد تتحرّر في المدينة من كل شيء قد تخلع عنك لغتك واسمك وأي شيء لا تحتاجه في المدينة اليهودية أو لا تحتاجه منك إلا من ذاتك. أنت هنا بذاتك، ويستغرقك وقت لتصبح لذاتك. قد تغير تسريحة شعرك، لكنك لا تغير لون بشرتك. وقد تغطي عينيك بالنظارات، لكنّ لونهما الأسود يفضحك. يعيدانك إلى كل ما تفتقده، لأنك تريد استعادته، فأنت في هذا الجيل لا تخطّط لاستعادة ما تفقده أو فقدته. ففي الطريق إلى عالم مدينتك الجديد لست منشغلاً بما يتساقط منك، وإنما بما تلتقطه في الطريق إلى هدف مجهول، وبما هو مقبل عليك من حياة. نصبح لذاتنا لأن هذه المدن منشغلة بتحديد الهويات والانتماءات على مدار الساعة، منشغلة بلون شعرك الفحמי، وبذوقك، وبشاربك الشرقي، وبنوع حذائك.

"البرانيط للزلام"

بحكم التجربة والمراجعات الكثيرة بدأت أُميّز الأوراق الطبيّة التي يصدرها طبيب القرية للمراجعين. والأوراق التي تسلّمتها أي من مساعدة الطبيب لا تشير إلى أنها رويته تصرف من صيدلية العيادة، ولم أكن بحاجة للانتظار حتى لا تتوقّف أي أمام الشباك الذي يوزّع فيه الدواء حتى أعلم بأنه تمّ تحويلي إلى عيادات التأمين الصحي في المدينة.

كانت أي كلما تمّ تحويلي تنظر في الأوراق وكأنها تقرأها رغم أنها لا تجد القراءة فيما يدها الأخرى تبحث في شالها الفلّاجي المزركش عن صرّة، هي عبارة عن محرمة ربطت طرفها ووضعت لبراتها الحديدية القليلة فيها. فتفكّرها وتعيد عدّها للمرّة الثانية منذ الصباح حتى تتطمئن بأنها كافية لدفع ثمن الطوابع التي تشتريها كتغطية رمزية للكشف الذي سيجريه لي متخصص بالأمراض العصبية ولدفع ثمن كأس محلول الشراب البارد الذي يُباع بثلاثة أطعمة: توت وليمون ونعناع، وتشتريه لي عادة في طريق العودة من كشك يقع بين محطة تكسيات نقل المسافرين للقرى العربية وسوق الخضار الذي تفوح منه رائحة الكزبرة الشديدة والمسيطرة على الروائح الأخرى

المنبعثة من الخضار والفواكه المتعفنة وأرغفة الفلافل الطازجة... كما يجب أن تكفي قروشها القليلة أجرة الطريق ذهاباً وإياباً. فقد حرصت دائماً ومن لحظة صعودها سيارة الأجرة، التي تتسع لستة ركاب، أن تجلسني في حجرها موضحةً بذلك للسائق بأنها ستدفع أجرة راكب واحد فقط. ولم أفهم سبب نقاشها ومفاصلتها للسائق في كل مرة فيما إذا ستدفع أجرة راكب أو راكبين، رغم أننا اثنان وبدا لي موقف السائق ومنطقه سليماً، إلى أن جاءت محاولاتها بإقناعي في إحدى المرات بالفشل واضطرت فعلاً لدفع أجرة راكبين، فلم تشتري لي محلول الشراب الذي كنت اختاره دوماً بلون التوت، ولا أستجيب لإلحاح أمي بأن تشتريه لي باللون الأصفر الذي تؤكد لي كل مرة بأنه ليمون يهدئ الأعصاب ويقوي الدم.

كان الشراب بالنسبة لي أهم من خلطات الدواء التي يصرفها الأطباء، بل إن السفر والنظر إلى واجهات المحلات فرصة تعيد إليّ توازني العصبي وتريح والدي لبضعة أيام من نوباتي العصبية التي تحوّلني إلى طفل عنيف يؤذي نفسه ومحيطه ويحطم كل ما تطاله يده. كنت في حالة النوبة على الدوام أطرق رأسي بالحائط لساعات طويلة، فتضطرّ والدي إلى الإمساك بالمخدّة الخاصة وراء رأسي والتي صنعتها خصيصاً لهذا الغرض، لتخفّف من اصطدامي بالحائط حتى لا أؤذي نفسي، فأتعب وأخلد للنوم.

لم تكن أم فلاح التي وصلت إلى المحطة آخر راكب من سكان حارتنا. لكنني كنت أعرفها وأعرف كل ما تعانيه من أمراض منذ وفاة زوجها. فقد كرّرت قصتها لسائق التاكسي والدي بل ولجميع الركاب عشرات المرات في كل مرة تسافر فيها إلى المدينة للعلاج وكأنها تتحدث لنفسها وتفكر بصوت عالٍ. فهي منذ النكبة كما تقول لم تعد تخفي شيئاً "كل شيء انفضح وبان". فلماذا لا تقول كل ما تريده لكل من يريد أن يسمع. لقد بدا لي حديثها بصوت عالٍ وشرح تفاصيل حياتها ومريضها هو العلاج الفعلي الذي يساعدها على تجاوز أمراضها ووحدتها.

سكنت أم فلاح مع ابنها وحيدها في غرفة صغيرة في مركز المدينة قرب الجامع، والتي كان قد اشتراها زوجها قبل وفاته بماله الذي تلقاه لقاء سيارة الشحن القديمة التي باعها بعد أن هدّته الهجرة من قريته قاقون... ولم يعد قادراً على نقل الخضار والبهايم والفلاحين من أهل وادي الحوارث إلى سوق يافا. كانت أم فلاح تقول، محدثة أبو العبد سائق التاكسي، بأنها منذ شبابها تعودت على ركوب السيارة بجانب السائق منذ أيام زوجها المرحوم الذي اصطحبها إلى سوق يافا. فهي امرأة شديدة السمّة، وتحتاج إلى أكثر من مقعد ليتسع ساقها الغليظتين وأردافها التي تحركها بصعوبة شديدة وهي تلهث حتى أثناء جلوسها.

أمي التي بقيت ممسكة بي في حجرها تنقل نظراتها بين أم فلاح والمقعد الفارغ بجانبها مؤكدة للجميع بأنها لا تشغل مقعدين، لكن أم فلاح أصرت على أبو العبد بطلبها الجلوس في المقعد الأمامي بجانب السائق.

- أنا ما انتي عارف يا أبو العبد ما يستحمل ضغط القعدة را.

رد أبو العبد بلسانه السليط وحبه الدائم لمعاكسة العجايز والتنكيت على ركابه:

- ضغط إيش يختي... ضغط كل الليل بتكثّفن عليه، وضغط ربع ساعة زمان لنصل للخضيرة ما بتتحمله!
- الله يكفيننا شر لسانك يا أبو العبد، أنا مرة عجوز وأرملة إمنين ضغط الليل يا قاروط السواد؟
- لم تكفّ أم فلاح على الرغم من جلوسها في المقعد الأمامي عن التشكيّ وشتّم العرب المسؤولين عن تردّي أوضاعها الصحية وارتفاع ضغط الدم وموت زوجها، ولم تستجب لطلبات أبو العبد المتكررة بأن تتوقف عن الحديث حتى يسمع نشرة الأخبار من إذاعة صوت العرب، بعد أن فتح الراديو ورفع الصوت لأقصى درجة.
- إيش ضل بدك تسمعه؟ احتلوا البلاد والعباد ووصلوا القناة...
- لم يُعرّ أبو العبد ملاحظتها اهتماماً وواصل ضبطه المحطة فيما بدأ أحد الركاب الشباب بجمع أجرة الطريق وهو يتحدّث موجهاً كلامه لأم فلاح:
- وحدي الله يا خالتي... عبد الناصر ما راح يفرّط فينا.
- لا إله إلا الله... وإيش بدو يعمل عبد الناصر، إيلي عمل عمل يا خالتي.

كانت الحرب قد انتهت وأنشأت حقائق جديدة لم يكن عقلي كطفل قد أدركها، لكنني كنت أسمع خالي، الذي يعمل عتّالاً في سوق الحسبة في المدينة، ويُحسب له ألف حساب من أصحاب البسطات والتجار لضخامة جسمه وقوته البدنية، يكرّر جملة ويضرب كفّاً بكف: "قويت عينهم ولاد الميتة." وبدأت أسمعه يقول، وهو يتشاجر مع جدّي منذ أن توقف عن السفر للمدينة والعمل في السوق: "بدك إيّانا يابا نلبس برنيطة؟" كثرت البرانيط بعد العام 1967، ففي قريتنا كان الرجال يرتدون الحطّة والعقال، لكن بعضهم ومن كبار السن ارتدى أنواعاً مختلفة من الطواقي كنت قد شاهدت مثلها في المدينة، ولم أفهم لماذا يرتدي حسن اليعقوب ووجيه إسكينة "البريه"، والمنيب يرتدي الطاقية الشرق أوروبية.

في هذه الأعوام، بدأ أبو العبد، سائق التكسي، هو الآخر يرتدي "البريه"، فيما أم فلاح ما زالت تناقش الجميع بأن "البلاد" لن تعود. كان رجال القرية يؤكّدون على عودتها، لكنهم عند مدخل المدينة ينزعون عن رؤوسهم الحطّة والعقال، بعضهم يلبس "البرانيط" وبعضهم يظل "إمفرّع" مكشوف الرأس، لكن جميعهم يُخفون عقلهم العربية بين ملابسهم أو يدفنونها عميقاً بين حاجاتهم التي يحملونها في صرر. أما أبو العبد، فقد كان يهتّم بتغيير المحطة إلى قناة تنطق باللغة العبرية.

لم أكن قادراً بعد في جيلي على الربط بين الهزيمة وظهور "البرانيط" على رؤوس رجال القرية، لكنني كنت قادراً على إزعاج والديّ بالسؤال: لماذا يخلعون الحطّات والعُقل ويلبسون "البرانيط"؟ لكن جوّ الهدوء وعدم ردّ أي على سؤالي أثاراً في الخوف والقلق أكثر مما أثاراً تساؤل الطفل، خصوصاً وأننا كنا كلما اقتربنا من حاجز الشرطة، الواقع في أول مدخل مدينة الخضيرة شرقاً، اشتدّ الصمت وزاد الحذر وارتفع ترقّب الرجال. فشعرت بالخوف على أي

المنطوية على صمتها، وبأن عليها أن تفعل شيئاً، فسألتها، بنبرة متوسّلة أكثر منها سائلة: "يمّه ليش ما تشلحي الخرقه، وتلبسي برنيطة؟" فردّت، بنبرة قاطعة وسريعة وكأنها تريد أن تتخلّص هي الأخرى من قلقها: "البرانيط للزلام." ضحك أبو العبد وقال، وهو يهزّ رأسه، وكأنه يحدث نفسه: "آه والله، البرانيط للزلام." لكن ملاحظته لم تثر أيّ تعليق، بل استدعت مزيداً من الصمت، حتى أم فلاح سكنت، ولم يعد لهاثها مسموعاً. ولم أجرو، في هذا الجو المشحون، على السؤال إذا ما كان للنساء "برانيط" خاصة، شاهدتُ مثلها في المدينة بأشكال وأنواع مختلفة ترتديها النساء اليهوديات. عندما اختفى الرجال، وتحفّوا في المدينة اليهودية بالبرانيط، كانت نساء القرية ترتدي كامل زيّها الفلاحي المزركش والمطرز.

وكّلما كانت النساء متقدّمات في السن كلّما قلّ التطريز في ملابسهن واختفت الألوان الفاقعة، وأصبحت فساتينهنّ مجرّد أقمشة بيضاء غاب منها الفرحة لتوجي بقربها من الأكفان والموت أكثر مما توجي بالوقار. بينما أمي، التي لم يتجاوز عمرها الخامسة والثلاثين، كانت تضع على رأسها الخرقه البيضاء التي تضي على وجهها جمالاً فلاحياً رقيقاً، فيشكل بياض تلك الخرقه مع الكحلة السوداء في عيونها، ووشم "السّيالة" الدقيق الذي يقسم شفرتها السفلى إلى قسمين متساويين، لوحة جميلة تبعث على الهدوء والطمأنينة. كنت أحب دوماً أن أنظر إليها، فأمسك بوجهها بين كفيّ الصغيرين وأتاملها حتى أهدأ من نوبتي العصبية. ولم أكن أستسلم للنوم قبل أن تجيبني على سؤال لي للمرة الألف، من وشم لها السّيالة؟ فتحكي لي عن قافلة النور التي مرّت بقربتها، منشية وادي الحوارث، وعن زوجة زعيم القافلة صانعة الوشم، التي وشمّت وجوه كل نساء القرية، فوافق جدّي بعد إلحاح النساء أن توشم لأمي "سّيالة" مقابل رغيف خبز وبيضة.

كان ثوب أمي المخملي الأحمر الذي طُرّز بعروق خضراء دقيقة، فيما الصدر غلب عليه اللون الأزرق، باعثاً على هذا الهدوء والطمأنينة إلى أن حصلت تلك الحادثة التي لم تعد حادثة منفردة، بل تكرّرت مرّات ومرّات إلى أن أصبح لباسها يثير فيّ الخوف والقلق. فقد كنا قد وصلنا عيادات التأمين الصحي، وكانت عيادة الطبيب الذي يشرف على حالتي تقع في نهاية ممر طويل يحتوي على مجموعة من العيادات، وقد جلس عدد من المراجعين قبالة كل عيادة. وما أن ظهرنا عند مدخل الممر وأنا ممسك بيد أمي، التفّت الجميع نحونا بحركة واحدة، النساء والرجال والأطفال وكبار السن، وكأنهم متّفقون على هذه الحركة، أو كأن جسماً غريباً قد وصل الممر، أو شيئاً ما غير مرئي وصل معنا يروونه ولا نراه، فأثار الانتباه وجعل العيون مفتوحة على وسعها مبحلقة تتجّه نحونا وتسير معنا كلما تقدّمنا داخل الممر... فنظرت إلى أعلى أحاول أن أرى وجه أمي حتى أستعين بملامحها، وأقرأ به سرّاً ما يجري، فبدت لي متسائلة أكثر مني، بل شعرت بيدها تمسك بيدي بشدة أكثر، الأمر الذي أثار مخاوفي. وحين جلست على أحد المقاعد في نهاية الممر غادره الجالسون ممن ارتدوا برانيط من الرجال والنساء وجلسوا مترصّين في مقعد واحد قبالتنا واستمروا بالنظر إلى والدتي وكأنها مخلوق فضائي غريب.

كانت العيون تقوم بأكثر من تعرية أمي، ولم تكن تحمل تساؤلاً أو سؤالاً، وإنما إجابة قاطعة صريحة تحمل تعابير الإدانة والاشمئزاز والقرع، فتخيلتُ أمي مصلوبة على المقعد الخشبي وجموع المراجعين في المركز

الطبي يغرزون أصابعهم في جسدها العاري، لكن الجسد لا تسيل منه الدماء، وإنما يتساقط عنه الجلد ويظهر من تحته ثوبها المخملي الأحمر، فيحرقونه بسجائرهم ويمزقونه بأسنانهم، فيعود الجسد ويظهر عارياً مرة أخرى، فيعيدون الكرة مرات.

وفيما أنا أتخيل تجدد البعث، بعث الجسد من الثوب، والثوب من الجسد، كنت أراقب طفلاً بالكاد تعلم الخطو، يسير نحونا من مقعد مرتدي البرانيط، حتى قامت والدته وانتزعتة من منتصف الطريق وجذبتة لصدرها مذعورة... فأذعرتني.

منذ تلك الحادثة، تعلمت تجنب السير إلى جانب أمي، ولا أعرف إن كنت قد بدأت أخشاه أم أخجل من ملابسها وما تستدعيه من نظراتٍ توتر أعصابي. كنت كلما ذهبنا لمراجعة الطبيب في المدينة اليهودية أبتكر وسائل جديدة للابتعاد عنها، إما التأخر بالتلهي في النظر إلى واجهات المحلات والكارمات ووجوه المارة، وإما بالسير بخطى سريعة تاركاً إياها ورائي بعيداً.

في القرية هي أمي التي أحتاج إلى عطفها وحنانها ككل الأطفال، أدفن وجهي في ثوبها وأستنشق رائحتها، وفي المدينة اليهودية هي ظلي أو أنا ظلها، أريدها مرافقة غير مرئية، أو أن أكون حاضراً معها غير مرئي. كنت، في كل مرة، بعد عودتنا إلى القرية أشعر بعفوية وإحساس الطفل المذنب بضرورة تعويضها عن ابتعادي عنها. فأحتضنها بقوة وتطرف، وفي كل مرة أجدني أحتضن ثوباً، ضمر فيه الجسد، وقلّت نقوشه وتطاريزه فبدى راية بيضاء كلما لبس الرجال البرانيط. فأصبحنا حاضرين غائبين.

"أرض عطا"

أرض عطا هي أرض امتدت على شاطئ المتوسط، جنوب غرب وادي الحوارث، يفصلها عن البحر طريق الساحل القديمة. شرف البيارات الأخضر، الممتد من الغرب إلى الشرق، غطى وسطها، فبانَتْ أكتافها كثباناً رملية، وبدت كأنها خلعت ملابسها ونامت على بطنها تعرض جسدها لشمس الغروب، فأبقت ذاك الشرف ليستر عورتها. وجدّي علي كان يبذل مع أبنائه الأربعة وبناته الست، التي كانت أمي فريدة إحداهن، جهداً استثنائياً ليواري بقية جسد أرض عطا بـ"لبش" البطيخ والشمام وباقي المزروعات الموسمية، لكنه ظلّ غطاءً موسمياً مؤقتاً كملكيتته للأرض، فلم يملك ثمن الأرض، ولا ثمن أشغال الشجر الدائم.

تضمّن جدّي أرض عطا من شلومو فرانك، "مالكها الجديد"، بعد أن تشارك مع أبي، الذي زوّجه ابنته بالتكاليف. كلاهما كانا يحاولان، ربما أن يواريا عورة لجوئنا، رغم أننا بقينا بعد النكبة في حدود الوطن، ولم نبتعد كثيراً، فغدونا لاجئين في وطننا، بعد أن فقدنا ملكية أرض منشية وادي الحوارث القريبة من هناك. لم نكن مواطنين في الدولة الجديدة ولا لاجئين تماماً. كنا بين الساحل والجبل نشبه أرض عطا: فلا نحن بخشونة كدر الجبل وطينه،

ولا نعومة رمل البحر. تربة الأرض في عطا خليط بين رمل حملته ريح الغرب، وطين جرفه سيل الوادي القادم من الشرق. وجدّي مزيج من كليهما: يبدو لك كدراً متجهماً خشناً، وما أن تلامس الفلاح فيه حتى يتفتّت بين يديك إنساناً، وينساب كالرمل بين أصابعك، عصبي المزاج رقيق القلب، يقسو على جدّي حين تُفاخر في إعداد الطعام للرعاة، ويسهر قلقاً عليها حين تصاب بالحمى.

في أحد الأيام، اختلف جدّي مع والدي في أمر ما يتعلّق بالشراكة بينهما. سحب جدّي الموس الذي يلازمه في جيبه دوماً، وقف في راس التلم، وقطف بطيخة وقسمها إلى نصفين وقال: "بدنا نقسم الشراكة يا نمر. هاي نُص إلك، ونص إلي!" احتجّ والدي على هذه الطريقة الغريبة في تقسيم المحصول، بل رفض قرار التقسيم وقال بأنه لا يُعقل أن نقسم مئتي دونم بطيخ بهذه الطريقة. ردّ جدّي: "هذه الطريقة تضمن لك حقك، حتى لا تتهمني بأنني أعطيتك بطيخة قرعة." هكذا كان جدّي هجيناً في سلوكه، هجيناً في أصله، فلم يكن بدوياً رَحَلاً يعتاش على تربية الماشية ورعيها، ولا فلاحاً لا يعمل إلا في الأرض، ولا يأكل إلا من ثمرها. ويبدو أن تسمية الهجانة التي أُطلقت علينا قد يكون مصدرها "هجين"، أي المزيج بين أصلين: البدواة والفلاحة، اللتين كنا ننتمي إلى كليهما بالمقدار نفسه. أو ربما جاءت التسمية من هجانة الإبل، فجئنا من قلب الصحراء، وحين تعبنا من الترحال، استقرنا في هذه البقعة من الأرض صدفه. وجدّي الذي ينكش الأرض من شروق الشمس حتى مغيبها، ليمنحها وجهاً جديداً، كان يحاول أن يثبت ملكيته للأرض بعد أن فقدنا الوطن، فصار النكش لنا صناعة للهوية.

كنت في السادسة من عمري عندما تسلّلت إلى بيارة شلومو فرائك بحثاً عن الأعشاش. لم أعرف أن في الطرف الشمالي للبيارة، حيث أحراش شجر الكينا الضخمة، تعسكر وحدات من الجيش "الإسرائيلي" التابعة لوحدات المنطقة الوسطى، فتوغّلت في عمق البيارة دون خوف. كنت طرباً بشذا أوراق الكينا، وإبر الصنوبر التي اختلطت مبلولة بالندى بورق البرتقال، فأطلقت هذه الخلطة عطراً مميزاً.

لم أجد في ذلك اليوم عشاً واحداً، لكنني اصطدمت بكتلة بشرية عارية. عدد كبير من المجنّدين والمجنّدات يستحمّون تحت ماسورة ريّ ثقبوها عدّة ثقوب وعلّقوها بين الشجر، فصنعوا لهم دشاً، ثم فرشوا الأرض بصناديق الذخيرة التي أفرغوها في الحرب القصيرة، هزيمة العام 1967، حتى لا تغوص أقدامهم في الأرض الموحلة. كان الجند فرحين، يغنون ويرقصون ويلهون بالماء رجلاً ونساء عراة مبتهجين بنصرهم الخاطف.

أخافني عريهم، أو ربما كثافته، أكثر مما أخافني ملابسهم العسكرية، فمثل هذا العري سأراه لاحقاً في الأفلام التي تروي قصة المحرقة، فترتبط المحرقة بالعري، وعريهم ارتبط لاحقاً بالاستيلاء على الأرض. وفيما كنت جالساً القرفصاء، أراقبهم من تحت الشجر، أحسست بكفّ خشنة تمسك بأذني وتكاد تقتلعها. كان جدّي علي يصرخ في وجهي غاضباً يسألني عمّا أفعّل. قلت ببراءة وصدمة: "بدور على عشوش." أفلتني، وانفجر ضاحكاً وهو يقول: "أي عشوش منهم يا عرس!"

ثم عادت ملامحه الجدّية، وقال كلاماً كثيراً لم أفهم منه شيئاً سوى أنه تحذير لي من التورّط بأمور كنت أجهلها. لكنني، ومن ذلك الحين، واصلت التوغّل في بيّاراتهم بحثاً عن أعشاش جديدة، متسلّحاً بلسان العبرية التي أجدّتها مبكراً قبل العربية، أو بالتوازي معها. فالعبرية (التي نطقت بها وسمعتها عندما كنت في الثالثة من عمري راقداً في مستشفى "هلل يافه" لمُدّة عام ونصف، بسبب تسمم إثر لدغة ثعبان) كانت بالنسبة لي زوجة الأب، بينما كانت العربية أُمّي. هكذا وصفتها، بعد أكثر من نصف قرن للكاتب "الإسرائيلي" سامي ميخائيل، عراقي الجذور والأصل، عندما زارني في سجن "جلبوع". فإذا كان من الطبيعي أن تحبّ أمك، فإن زوجة الأب التي عشت في كنفها وأكلت من طعامها الذي أعدّته لأطفالها، فنلت منه نصيباً، كانت قاسية، وعلاقتي بها تراوحت بين الانجذاب والنفور، بين الإعجاب والكراهية. والجنود، الذين ربما ذكّرتهم بأطفالهم أو أشقائهم الصغار الذين تركوهم خلفهم قبل أن يذهبوا إلى الغزو، منحوني من خبزهم، خبز "الفينو" الأسود، الذي نفّرني مذاقه الحامض، وجذبتني في كل مرة رائحته الزكية.

في بداية الربيع، موسم "جَزَاة" صوف الغنم، تتجنّد الأسرة بصغارها وكبارها لتقتاد القطيع إلى البحر، لتغطّسه في الماء المالح، حتى "يَفْشَفِش" "المِرْعَز" الذي علق بصوفه، وحتى تتمكّن النسوة من تنظيفه بسهولة بفراشي السلك المعدني ومن تهينته للرجال الذين بدورهم قاموا بقصّ الصوف وأعادوه، مرّة أخرى، لتنظّفه النساء مجدداً بماء البحر بشكل أفضل. وكي نصل إلى البحر من أرض عطا، كان علينا أن نقطع الطريق الساحلي بين حيفا و"تل أبيب"، والكلاب تحيط بالقطيع تحته بنباحها على عبور الكتبان الرملية. وما أن ظهر البحر خلف الكتبان حتى اندفعت الأغنام نحوه مهرولة، وأنا خلفها، ظانّة أنه مرعى، فالأغنام غبية لا تميّز الألوان. وعند وصولها حافة الماء، واندفاع الموج الهائج نحوها، تراجعت مذعورة، رافضة دخول البحر، فعلاً ثغاؤها، وصارت صغارها تجوح بنعائها وتبكي، والكلاب مصرّة بنباحها على دفعها نحو الماء. كان البحر الذي أشاهده أول مرة مخيفاً، وقفت عند حافة الرمل الجاف حافياً، نصفّي العلوي عارٍ، وثغاء الأغنام الذي تحول إلى رغاء زادني خوفاً. أحسست ضغطاً في المثانة، ورغبة شديدة في التبول. خشيت إن تبولت على نفسي من عقاب أُمّي والفضيحة فتغلبت على خوفي من البحر، دخلت إلى الماء إلى أن غطى نصفّي الأسفل وحررت البول الذي قاومت تسرّبه.

في حفلة جزّ أخرى، ونباح كلاب تشبه البشر، مررت بالطريق الساحلي نفسه الممتدّ من "تل أبيب" إلى حيفا أثناء نقلي خلال الإضراب عن الطعام خلال العام 2004، مع مجموعة من الأسرى، من سجن "الشارون" إلى معتقل الجلّة. وعند منعطف عتليت، حيث يقرب الشارع من البحر، انكشف لي بكل بهائه ومهابته من داخل زنزانه نقل الأسرى، لأول مرة منذ ثمانية عشر عاماً. في هذه اللحظة، حضرتني ذاكرة أرض عطا، فأجوس بها وأقتات عليها، وأنا في يومي الخامس عشر من الإضراب، إلى أن سالت دموعي. وحين شعرت برغبة شديدة في التبول، انفجرت ضاحكاً، بينما رفاقي الأسرى يتأملوني باستغراب، ظانّين أنني فقدت توازني العقلي من شدة الجوع، وأنا في الحقيقة ربما جننت للحظة، لكن ليس من الجوع، وإنما من شدّة الشوق، ف"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". فتلك الأيام والذكريات شكّلتني، وطوّرت شخصيتي الوطنية بخيطة بساطة الحياة الناعم، بعيداً عن غلاظة الخطب والشعارات وفذلكات الإيديولوجيا، وعنصرية العقيدة. فلم أرَ "الإسرائيلي" خارقاً يغتصب الأرض، وإنما بشر مثلنا

أداروا رأس مالهم جيداً، فانتصروا علينا. تمكّنت من البقاء بعيداً عن التنميط، فلا ذيل لهم ولا قرون... ألم أشاهدهم عراة؟! لم أحب الوطن والأرض عبر قصيدة قرأتها، ولم أكره الغزاة من كتب التاريخ. كان جدّي النصّ والمنصوص، أطلعه كل صباح، يُسرّح فيه الغنم في مراعي أرض عطا، فافهم الدرس قبل أن أقرأه في كتاب.

شلومو فرانك عجوز ثري، يملك بالإضافة إلى البيارة والأرض المحيطة بها بئر ماء ارتوازي خاص، وبركاً ضخمة لتربية الأسماك. كان من عادته أن يزور المزرعة أيام الجمعة، يأتي بسيارته "تشكر" السوداء التي يقودها سائقه الخاص، يتأمل الأرض ويتبادل مع جدي بضع كلمات، ثم يتّجه إلى السيارة نحو بركة السمك القريبة. يخرج من السيارة حاملاً عصاً طويلة ثبّت في آخرها شباك صيد مخروطية، يخلع قبعته الأوروبية ويضعها على غطاء المحرك، ينزل الشبكة في الماء ويغرف ثلاث سمكات سمان، ثم يغادر مسرعاً ليستعدّ لوجبة العشاء قبل دخول السبت. كان هذا المشهد يتكرّر أسبوعياً.

وفيما كنت أراقب المقثاة من علّية "الخُص"، كما يليق "بناطور صغير يقط"، حيث بناه جدّي على تلة كاشفة لأرض عطا، ظهرت سيارة شلومو فرانك من بعيد، على غير عادة، فالיום يوم الثلاثاء. سارت خلف السيارة جرّافة خلّفت وراءها غيمة من الغبار. نزلت مهرولاً نحو جدي لأنّبّه بدخولهم أرض عطا، فقد كنا في أواخر موسم جمع الثمار. مررت من وسط الأرض المزروعة بالبصل والثوم الذي تمّ تجميعه في أكوام سمينها "صوبّات"، محاولاً الوصول إلى المقثاة، حيث وقف الحاج علي، بجانب أحد أكوام البطيخ. شمّر الحاج دمايته ما أن لحظهم يقتربون، وطوى الحطة فوق العقال، ثم وضع كفّه فوق حاجبيه "ضارباً مشراده" مركّزاً نظره، يراقب السيارة القادمة باتجاهه. وصلته السيارة قبل وصولي إليه. تسمّرت في مكاني أرقب ما يدور من بعيد. نزل الرجل من السيارة، تبادل مع جدّي حديثاً لم أنجح في سماعه من بعيد. مدّ يده في جيب جاكيتته الداخلية، وأخرج عدداً من الأوراق النقدية الزرقاء التي طبعت عليها صورة هرتسل. تناولها الحاج دون أن ينظر إليها وهو يرطن غاضباً، وظلّت ذراعه الممسكة بالنقود مدّلة إلى جانبه، وكأنها أصيبت بالشلل، ثم رفعها ونظر إلى الأوراق النقدية، وأعاد نظره إلى الجرّافة التي تقدّمت نحو أكوام البطيخ. امتلأت الأرض بالسائل الأحمر، كان البطيخ يتفجّر تحت عجلات الجرّافة التي مرّت على الأكوام ذهاباً وإياباً حتى سوتها بالأرض. جلس جدّي القرفصاء لا يقوى على متابعة مشهد إبادة محصوله أمام ناظريه. كانت النقود التي تسلمها، كما فهمت بعد عقد من الزمن، تعويضاً رمزياً عن إبادة المحصول، للحفاظ على أسعار المنتجات الزراعية الخاصة بالمستوطنات في ظل الكساد الاقتصادي بعد حرب العام 1967.

بكيت لمشهد جدي حزيناً غاضباً، حائراً بين القبول بالأوراق النقدية ومقاومة إبادة المحصول. ركضت بأقصى سرعتي نحو البركة التي يصطاد منها شلومو فرانك سمكاته الثلاث. وقفت عند حافّتها، أنزلت بنطالي وثلّت. نظرت إلى الخلف نحو جدي، تلاقت نظراتنا، فابتسم. بادلتة الابتسامة فانقلب على ظهره مطلقاً ضحكة مجلجلة. من ذلك الحين ومنذ أن صار لي لسان، ولدولتهم عيون وآذان، تعلّمت التبول في بركهم سرّاً